

علاقة البعثات الاستكشافية

بمشروع السكة الحديدية العابر للصحراء الجزائرية في القرنين 19 و 20 م

The relationship of exploratory missions
to the Algerian Trans-Saharan Railway Project in the 19th and 20th centuries AD

بوقرين عيسى²

a.bougrine@lagh-univ.dz

بولنوار حمزة¹

h.boulanouar.sh@lagh-univ.dz

تاريخ النشر: 2026/03/15

Received: 01/10/2025

تاريخ الاستلام: 2025/10/01

published: 15/03/2026

ملخص المقال :

تعتبر البعثات الاستكشافية الأوروبية نحو الجزائر ذات أهمية بالغة حيث اعتبرت بمثابة مفتاح الغزو الفرنسي ، وخريطة الطريق نحو المشروع في تنفيذ مشاريعه الاقتصادية خاصة مشروع السكة الحديدية العابر للصحراء، وهو موضوع بحثنا وتنفيذا لأفكار التيار السان سيموني بشمال إفريقيا، أما الهدف منه هو توضيح أن البعثات الاستكشافية تتقاطع في عدة نقاط مع مشروع السكة الحديدية وهو ما لم تنفقه التقارير الفرنسية التي تناولت المشروع مروراً بالمرسوم الامبراطوري عام 1857 الذي يشجع على التوسع في الصحراء الجزائرية واستغلال ثرواتها تمهيداً للتوغل في إفريقيا لاسترجاع المجد الفرنسي وبناء امبراطورية فرنسية جديدة بإفريقيا.

كلمات مفتاحية: البعثات الاستكشافية، الاستعمار الفرنسي ، السكة الحديدية ، العابر للصحراء ، الصحراء.

Abstract:

The European exploratory missions towards Algeria are of great importance as they were considered the key to the French invasion, and the road map towards starting to implement its economic projects, especially the trans-Saharan railway project, which is the subject of our research and the implementation of the ideas of the Saint-Simonian movement in North Africa. The aim of it is to clarify that the exploratory missions intersect at several points with the railway project, which was not denied by the French reports that dealt with the project through the imperial decree of 1857, which encouraged expansion in the Algerian desert and the exploitation of its resources in preparation for penetration into Africa to restore French glory and build a new French empire in Africa.

Keywords: Expeditions.; French colonization; Railway; Transsaharien ; desert.

¹ مخبر: الدراسات التاريخية للوطن العربي عبر العصور. جامعة عمار ثليجي الاغواط

² جامعة عمار ثليجي الاغواط

مقدمة:

قبل الاحتلال الفرنسي، وخلال بدايات دخوله الى الجزائر، كان من الصعب على المسافرين اختيار هذه الاخيرة كنقطة انطلاق لاستكشافاتهم في الصحراء الوسطى، والتي هي جزء من الصحراء الافريقية الكبرى التي عرفها "الزيدي" في تاج العروس و"ابن منظور" في لسان العرب بأنها "الارض المستوية" وقيل انها "الفضاء الواسع" و التي حظيت أيضا قديما وحديثا باهتمام الاوربيين نظرا لوقوعها بالعالم القديم واعتبارها أيضا جسرا برياً حيويًا أمام القوافل التجارية والتنقلات البرية بالمنطقة، وهو ما جعل الاوربيين في العصر الحديث يصرون على اكتشاف المنطقة، و معرفة خباياها وتقصي مزاياها بالأخص بعد توسع نطاق الكشوفات الجغرافية تزامنا مع انشاء الجمعيات الجغرافية والعلمية لجمع أكبر قدر من المعلومات، والمعطيات عن المنطقة وكانت الجمعية الافريقية اولى الجمعيات التي سارعت بريطانيا لتأسيسها عام 1788م كما كان لهذه البعثات علاقة وطيدة بينها وبين التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، وطبيعة مشاريعه التي دأب الى تنفيذها خلال القرن 19 و20م خاصة مع ظهور الفكر السانسييموني، ومشروع السكة الحديدية العابر للصحراء. فما اهمية البعثات الاستكشافية الى الصحراء الجزائرية في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين عند السانسييمونيين؟ وما علاقتها بمشروع السكة الحديدية العابر للصحراء؟ وما هي الاهداف الحقيقية وراء استغلال البعثات الاستكشافية في وضع خطة مشروع السكة الحديدية؟

البعثات الاستكشافية والفكر السانسييموني

1.1 أهمية البعثات الاستكشافية عند السانسييمونيين:

تؤكد الوقائع التاريخية أن الفكر الاستعماري المتعلق بصحراء الجزائر هو فكر له أطماعه وأهدافه، والذي عبر عنه السانسييمونيون من خلال الافصاح عن رغبتهم في التوسع بالشمال الافريقي ، ولعل أهم من درس تفكيرهم هو "مارسيل إيميرت" الذي خصّهم بكتاب عنوانه **السانسييمونيون في الجزائر** حيث يرى أن "السانسييمونيين" رجال سياسة واقتصاد ، أما من الناحية الاقتصادية فأهدافهم تركز على التطور الصناعي للخروج من التخلف المورث للبطالة، ولن يتم ذلك باستغلال الثروات، ولن يتحقق إلا بمد شبكة المواصلات وعلى رأسها السكة الحديدية فاهتموا بها اهتماما بالغاً هنا في الجزائر " (مصطفى، 2013، صفحة 31) كما يتطابق هذا التصريح مع ما جاء في الرسالة التي بعثت الى السيد بورلييه نائب مقرر لجنة السكك الحديدية العابرة للصحراء ومما جاء فيها: "لاشك أن مسألة السكك الحديدية العابرة للصحراء تهم اليوم وبحق اولئك المهتمين بعظمة الوطن، والتأثير الذي يجب أن نمارسه في المناطق الشمالية من افريقيا وخصوصا في السودان الغربي ... يجب انشاء المستعمرات المأهولة بالكثافة لضمان انتاج المواد الاولية الضرورية لازدهارنا ويجب ايضا توفير أسواق للمنتجات المصنعة في مصانع المركز..." (M.Bourlier, 1890) وهو سر تواجد القوات الفرنسية في جنوب الجزائر بل أن هذه المنطقة من الجنوب الجزائري قد خرجت من مرحلة الاحتلال العسكري البحت لتدخل مرحلة الاستعمار الحقيقي. (Blanc, 1890

p. 6)

ولقد اهتم الفرنسيون اهتماما بالغا بالصحراء للتعرف على اسرارها، وكذا التعرف على طرقها الصحراوية ومسالك قوافلها التجارية نحو السودان، حيث عرضت فرنسا منحة قدرها 6000 ستة الاف فرنك للذي يقوم برحلة الى تومبوكتو شريطة ان يأتي بمعلومات دقيقة عنها وصولا الى السنغال سواء ذهابا او ايابا، واجتهد ايضا بعض المستكشفين الفرنسيين حتى في ترجمة الكلمات المتداولة في الجنوب الصحراوي الجزائري مثل كلمة الحمادة (F.Foureau, 1883, p. 2)، والحاسي وغيرهما من الكلمات، ثم تقديمها كفائدة جغرافية لصالح التمدد الفرنسي وتسهيل عملية توسعه.

بالاضافة الى ان هذه البعثات قد ساعدت على استكشاف طرق الصحراء المختلفة انطلاقا من الساحل الى الجنوب نحو اعماق الصحراء الافريقية، فقد قام الدكتور ليفينغستون باستكشاف البلدان الافريقية في منطقة الصحراء عبر مركب بخاري والذي سمح له باستكشاف انهار وبحيرات افريقية لذلك جعل الاستكشافات الماضية والمستقبلية مربحة (Jules, 1860, p. 8) حيث اتخذت من بعض المناطق في الصحراء الجزائرية مناطقًا للعبور عبر أهم الطرق التجارية آنذاك:

- طريق مراكش الى تمبكتو وهو يمر على تاوريرت وتندوف ومنطقة ايقيدي وعرق الشاش كما يمر بالجرف شرقا ثم تمبكتو، ولهذا الطريق فرع نحو الجرف الاصفر وزمورة والقلعة وسماमित وحاسي بوتلان ثم يتفرع فرع نحو تمبكتو وفرع الى قصر البرشان، وعطار ووجيفت على شاطئ المحيط الاطلسي.
- طريق فاس ومكناس الى تمبكتو ويمر بقصبة المخزن وام دريبية ويتبع حوض واد ريغ الى ايجلي ثم حوض الساورة وتوات وأقالبي ووالن وعين رنان ومبروك وتمبكتو بالاضافة الى طريق آخر من مراكش مرورًا بتمنطيط الى اقالبي وبئر تيريشومين.
- طريق وهران وارزيو الى تمبكتو ويمر على خيثر ومشربة وعين الصفراء وفقيق ويتبع وادي زوزفانة الى ايجلي أين سيلتقي بطريق فاس تمبكتو، وهناك طريق آخر يبدأ من خيثر الى البيض الى لبيض سيدي الشيخ والمنقب وتوات اين سيلتقي بطرق وهران فاس ومكناس الى تمبكتو.
- طريق مدينة الجزائر الى تمبكتو ويمر بالبليدة ثم بوغار والاغواط ثم غرداية والمنبعة وعين صالح واقالبي وبئر تيريشومين وتوات ثم تمبكتو.
- طريق سكيكدة وقسنطينة الى أمقيد والحقار وتمبكتو ويمر على باتنة وبسكرة وتقرت وورقلة والبيوض وأمقيد وتيمسا وايعروان الى مبروك وتمبكتو ولهذا الطريق فرع يبدأ من جنوب بسكرة الى وادي سوف ومنها الى غدامس وغات وحياد وبلما وأقاديم وماو وفرع من البيوض الى عين صالح وفرع ثالث الى غات (ابراهيم، مقاربات في تاريخ الجزائر 1830-1962، 1912، صفحة 36).

- طريق طرابلس الى تمبكتو ويمر على سناون وغدامس وتيمياوين والبيوض اين يصل بطريق قسنطينة الى تومبوكتو.
- وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كثف الفرنسيون نشاطهم الاستكشافي في الصحراء فقد قام الضابط دوكولومب القائد الاعلى لدائرة البيض برحلة استكشافية الى قصور (قرى) الجنوب الغربي الجزائري في مستهل شهر جانفي 1857م قصد اكتشاف قصور تينقورارين وتوات وتيديكلت التي وصفها بكونها جزر خضراء وسط محيط من النار (colombe, Explorations des ksours et du Sahara de la province du d Oran, 1858, p. 10).

1.2 العلاقة بين البعثات الاستكشافية ومشروع سكة الحديد العابر للصحراء:

كان لهذه البعثات والرحلات الاستكشافية علاقة مباشرة، ووطيدة مع مشروع السكة الحديدية العابر للصحراء في العديد من النقاط والتي من بينها:

1. الاهداف المشتركة حيث كانت البعثات الاستكشافية تسعى الى تحديد موارد المناطق الصحراوية اذ كانت 1956 سنة المعجزات بالصحراء لما اكتشف البترول بإيغلي كما قامت بعثة اخرى تستكشف التاسيلي يقودها "هنري هوتي" بحثا عن ما اسماه المستكشفون " اكبر اثاره فنية يجريها العلماء منذ اكتشاف ضريح عنخ امون " (غيرستر، 1961، صفحة 23) وخريطة الطرق القديمة مما ساعد وساهم في وضع البنية التحتية والارضية للبدء في المشروع العابر للصحراء Transsaharien.
2. تقديم التقارير من قبل المستكشفين فيها معلومات قيمة عن الجغرافيا، السكان، والطرق والاسواق التجارية وهو ما افاد المختل الفرنسي في صياغة مشروعه العابر للصحراء.
3. التحكم في طرق القوافل التجارية بالصحراء وتطوير وسائل النقل للسيطرة على الموارد الطبيعية و المالية بتطوير وسائل النقل الحديثة، رغم اعتقاد فرنسا الريح التجاري ضئيل مع هذه الطرق وذلك حسب ما جاء في تقارير المستكشفين للصحراء الاوائل (A- P.TUILLIER, 1900, p. 105)، وهذا يتوافق مع ما عبر عنه الوالي العام "بيجو" الى الماريشال "سولت" حيث ارسل اليه يخاطبه: "...بسيطرتنا على هذه المناطق تفتح لنا آفاقا واسعة لازدهار تجارتنا وربطها بأفريقيا الداخلية" (E.Mangine, 1894 , p. 37)³
4. العمل على جمع المعلومات ووضع الخرائط التي تخدم اطماع المختل الفرنسي للجزائر والسعي الى ربطها بباقي المستعمرات، حيث ان الجغرافيين الفرنسيين نقلوا عن جنودهم عام 1830 أنهم قد شاهدوا الصحراء الكبرى من الساحل وأن الجغرافيين جميعا متفقين على تسمية المنطقة بذلك الاسم اي الصحراء الكبرى التي تمتد من المحيط الاطلسي الى نهر النيل ومن سفح الاطلس المغربي والجزائري الى السنغال والنيجر (E.CAT, 1892, pp. 5-6).

محاولات اكتشاف الصحراء قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر:

قام الرحالة والمستكشفون الرومان واليونانيون منذ القدم باستكشاف الصحراء ولكن معلوماتهم كانت ضعيفة عنها ومن بينهم المؤرخ الروماني بلين (23 ق م - 79 ق م) (العربي، 1983، صفحة 70)، وأن الصحراء في نظر الاوربيين لفترة طويلة من اقل المناطق شهرة في افريقيا وتحيلوها كسهل محترق هائل يتردد صدها بزئير الاسود والزوابع الهائلة وبعض الواحات والتي من الممكن ان تكون جزرا وارخبيلات (E.CAT, 1892, p. 5)، كما قام الرحالة والمكتشفون الاوربيون المتأخرون بالاستكشاف وتمهيد الطريق أمام الاحتلال لانجاز مشاريعه، ذلك بتزويده بكافة المعلومات والخرائط والرسومات التي سهّلت له التحرك في هذه المناطق وانطلاقا من هذه الحقيقة فإنه لا يمكن موافقة الرأي الذي يقول بأنهم قاموا برحلاتهم هاته رغم ما تنطوي عليه من أخطار من أجل البحث والعلم فقط.

كما غزت الاكتشافات الأوربية الألمانية والانجليزية الصحراء الجزائرية كل الاتجاهات وسجلت ملاحظاتها حولها كما فعل الفرنسيون والذين قرروا استكشاف الصحراء كسابقهم ومشاركتهم لعبة الاستكشاف إضافة إلى أن تصريحات وكتابات القادة الفرنسيين تدل على أن هذه الرحلات الاستكشافية كانت تمهيدا لتوسعها في المناطق الصحراوية والوصول إلى أبعد نقطة إلى تمبوكتو حيث قام لأول مرة المستكشف "كايي" سنة 1827م بعبور الصحراء، وأيضا بعثة "رولفس" و"ناختيخال" وآخرون وقد تم تحقيق تقدم كبير وهائل في العبور الكامل للصحراء (Blanc, 1890, p. 5)، والدليل على ذلك ما نلمسه في التقرير الذي وجهه "هنري دورليان" إلى الوالي العام في الجزائر عند حديثه عن الحملة الفرنسية التي استولت على بسكرة في 4 مارس 1844 حيث قال: "لقد بعثت عيوني من الضباط الذين يحسنون اللغة العربية فاختلطوا بجموع القبائل وفي ظرف عشرة أيام أتوني بالارشادات السياسية اللازمة والاحصائيات التي مكنتني من اتخاذ التدابير اللازمة".

وأكد قائد الفيلق الفرنسي المدعو General Meynie قائد تراب الوحدات الجزائرية بقوله: "على أي حال نحن مصممون على الأهداف التي سيتم الوصول إليها من شمال إفريقيا السنغال وحلقة النيجر، وبحيرة تشاد، والمشاريع التي تتشكل بعد الصحراء تستهدف بالفعل هذه الدول".

كانت البداية للرحلات الاستكشافية الفرنسية في الجنوب الجزائري بتأسيس لجنة الاكتشاف العلمي من قبل السلطات الفرنسية عام 1837، حيث شكل القرار الوزاري رسميا لسنة 1839 هيكله لهذه اللجنة ب 21 عضوا أغلبهم من أكاديمية الآداب والفنون والكتليات العسكرية، أي أنهم من مختلف التخصصات العلمية مهمتها استقصاء الصحراء الإفريقية وجمع المعلومات عنها لأغراض مختلفة منها خدمة المصالح الاستعمارية خاصة لدى التيار السانسييموني.

نماذج من البعثات الاستكشافية للصحراء الجزائرية خلال القرن 19م و20م:

خلال القرن 19م والقرن 20م قامت القوى الأوربية خاصة الفرنسية بتنظيم بعثات استكشافية إلى إفريقيا لاستكشاف المناطق غير المعروفة وقد هدفت هذه البعثات إلى:

جمع معلومات جغرافية واثنوجرافية، واكتشاف طرق التجارة الممكنة، والبحث عن الموارد الطبيعية وهو ما كان يهم السلطات الاستعمارية في عبورها للصحراء الشمالية وتسهيل الضوء على جغرافية هذه المنطقة التي لم تكن معروفة تماما في ذلك الوقت (Largeau, 1881, p. 6).

أيضا التركيز على الصحراء الكبرى كونها منطقة استراتيجية بين شمال إفريقيا ووسطها، ولإيجاد طرق جديدة لربط المستعمرات وجعل الجزائر، السنغال، والكونغو وحدة واحدة عبر صحراء الطوارق ووسط وغرب السودان. (A-P.TUILLIER, 1900, p. 103) بالإضافة إلى تتبع والبحث عن بقايا الحضارة الرومانية التي لها علاقة بتاريخ أوربا والتي سعى إليها المستكشفون الأوربيون مثل رولفس الذي لم ينجح في تقديم معلومات كافية عن تاريخ وجغرافية الفترة الرومانية. (Vuilot, 1895, p. 97)

كما تتقاطع أهداف مشروع السكة العابرة للصحراء بهذه البعثات حيث أنه كان يبحث عن الربط بين شمال إفريقيا بلدان الساحل والصحراء الكبرى، وكان الهدف الأساسي من المشروع تسهيل التجارة بين المستعمرات وربطها بالمراكز الاقتصادية في أوربا (A-P.TUILLIER, 1900, p. 105).

ومن بين البعثات الاستكشافية التي كان لها حضور في خريطة المشاريع الاقتصادية كنماذج وليس على سبيل الحصر:

1.3 بعثة روني كاييه:

لم يكن تفكير فرنسا في توسعها الاستعماري نحو الصحراء الجزائرية وليد تاريخ الاحتلال أو القضاء على المقاومة الشعبية في المناطق الشمالية وإنما يعود الى 1824 اذ تمكن في هذا التاريخ والى غاية 1828 الموفد "روني كايي" (احميدة، 2009) من الظفر بلقب مغامر فرنسي في عمق الصحراء الجزائرية. وكان "كاييه" ينوي ان يخترق الصحراء نحو مصر والحجاز وبسبب الصعوبات التي واجهته اكتفى باستكشافه لتمبكتو ثم العودة الى طنجة (ابراهيم، مقاربات في تاريخ الجزائر 1830-1962، 1912، صفحة 33)، وهكذا يعتبر "روني كاييه" من المغامرين الفرنسيين الاوائل الذين اخترقوا الصحراء وهو اول مكتشف لاول طريق منتظم يربط عبر الصحراء حوض النيجر الاعلى والاطلس بساحل البحر الابيض المتوسط في الفترة بين 1816 و 1824 (Largeau, 1881, p. 4)، وتحصل مقابل ذلك على مبلغ 10 آلاف فرنك لأول أوربي يصل الى تمبكتو على ضفاف نهر النيجر من قبل الجمعية الافريقية كتشجيع ودعم لجهود روني كاييه في أعوام 1824 _ 1828، كما تقلد وسام جوقة الشرف ومعاشا من قبل الحكومة الفرنسية وكان أول المغامرين الفرنسيين الذين استكشفوا اعماق الصحراء، والتي عبرها من السنغال الى تمبكتو وعاد على طريق تافيلالت الى فاس والرباط وطنجة. وخلال هذه الرحلة تعلم روني كاييه اللغة العربية وأتقنها جيدا لما كان مقيما بمراكش، وقبل أن يصل الى تمبكتو استطاع قراءة القرآن.

وبذلك قدّم للمصالح المهمة باحتلال الصحراء وادغالها المعلومات الجغرافية والعرقية والثقافية والعادات والتقاليد وطرق معيشة السكان وظروف مدغم وغناها وحصولها وكل ما يزيد في مهام الفرنسيين اقداما لتحقيق احلامهم التوسعية في القارة الافريقية وعاد روني كاييه الى فرنسا حاملا معه ملاحظاته رسومات قيمة أنجزها خلال رحلته، فكان أول أوربي يعود بوصف دقيق للمدينة (العري، 1983، صفحة 70) في كتابه المعنون ب:

Journal d'un voyage à Tombouctou et dans l'intérieur de l'Afrique

من جهة أخرى وبعد رحلة "كاييه"، وظف الاوربيون الجانب العلمي في دراسة الصحراء، اذ اهتم بعض المهتمين مثل أفازاك بدراسة المنطقة وانجز عام 1836 دراسة جغرافية تهتم بالصحراء ضمنها في خريطة فيها طرق المواصلات القديمة مع تقديم تطور حول كيفية استغلالها من قبل فرنسا كما تعد النتائج الجغرافية لرحلته هي الاكثر أهمية حيث دون مسارات رحلته، وسجل عليها الملاحظات الدقيقة باستخدام البوصلة، وهو ما ساعد باقي الرحالة في رحلات استكشافهم للصحراء. (Vuilot, 1895, p. 8)

2.3 بعثة هنري بارت:

أما في مطلع الخمسينيات من القرن 19 ميلادي فقد بدأت الرحلات الفرنسية تزداد نحو الجنوب الجزائري، وقام الدكتور الالماني "هنري بارت" برحلتين رئيسيتين سنتي 1849 م 1855 م من طرابلس عبر غدامس وغات وبفزان والى تشاد وتمبكتو عبر قورارة وتوات وتيديكلت وكان برفقة صديقيه "ريتشارد صون" و"ادفريج" الذان فقدهما في هذه المغامرة وقد غادروا طرابلس في 24 مارس 1850 فوصلوا بورنو في جانفي 1851 وهناك قد افترقوا فقدم "بارت" بحيرة تشاد ثم انحدر الى جنوبها عند يولا ومنها قام بالدوران حول البحيرة. وقبل حلول فصل الشتاء قام بارت بالتحول والاتجاه نحو الغرب فوصل الى كاسينا في بداية السنة الموالية ثم دخل الى مدينة كوكوتو ومنها واصل طريقه غربا نحو نهر النيجر فعبه ثم اتجه نحو تمبكتو في شهر سبتمبر 1853 م ثم عاد متجها نحو طرابلس، وقد وصلها في 28 أوت 1855 ليعود الى لندن يوم - سبتمبر 1855. (بوعزيز، 1999)

هكذا استطاع بارث تقديم معلومات دقيقة عن الصحراء، وبلاد تشاد حيث جمع الكثير من المعلومات الجغرافية والجيولوجية وحتى التاريخية للسكان كما ساهم في ربط العلاقات التجارية بين أوربا، وهذا الجزء من العالم ولذلك اعتبر بارث من أكبر المستكشفين العلميين في إفريقيا، وقبل وفاته بقليل في شهر جانفي عام 1865 كتب مقالا نشره في الجمعية الجغرافية بباريس حث فيها فرنسا على القيام بعمل واسع في الصحراء الجزائرية (ابراهيم، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934، 2011، صفحة 407)، وعليها احترام سكان هذه المناطق ومعتقداتهم الدينية وان تحسن اختيار روادها لهذه المهمة وعليها حمل السيف والبندقية في يد وفي اليد الاخرى الكتاب و القلم وبذلك يمكن ان نتحصل على نتائج مبهرة في هذا الميدان (barth, idees sur les expositions scientifiques en Afrique ; in extrait du bulletin de la societe de geographie , 1872, pp. 10-19).

3.3- بعثة هنري دوفيرييه:

بعد هذه الرحلة تم اختيار هنري دوفيرييه فبالرغم من نجاح بعثة اسماعيل بوضرية الى غات فان الوالي العام الى الجزائر لم يطمئن لنتائج هذه البعثة لأنه مسلم ويريد اكتشاف رد فعل السكان اتجاه أجنبي لذلك اختار دوفيرييه لكي يتسنى له التوغل والنفوذ الى منطقة تاسيلي واقليم توات ويحضر معه دليلا على حسن تصرفاتهم تجاه الفرنسيين (Vuilot, 1895, p. 59)، وهذا ما يؤكد طبيعة الاهداف المشتركة بين المستكشفين والاحتلال الفرنسي.

بتاريخ 1 سبتمبر 1857 وصل مدينة متليلي للمنيعة فاحتجز هناك من قبل السكان مما جعله يغادر المدينة نحو متليلي ثم غرداية والاعواط التي غادرها في نوفمبر 1859 راجعا نحو قسنطينة (العربي، 1983، صفحة 83) وبعد عام رجع الى بسكرة قاصدا التراب التونسي مرورا بوادي سوف كما قام دوفيرييه بالتوجه من سكيكدة نحو بسكرة عبر باتنة وقسنطينة يوم 8 ماي 1859 وصولا الى قرارة بميزاب، ثم انتقل الى غرداية ودخلها يوم 21 جوان ثم اتجه الى متليلي عساه يلتقي ببعض التوارق ليساعده في مهمته، ثم قرر الرجوع الى بسكرة في 10 أبريل 1860 (ابراهيم، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934، 2011، صفحة 411) وبعد هذه الرحلة كلف الوالي العام للجزائر الرحالة دوفيرييه برحلة الى التوارق لاجراض تجارية عام 1860 عبر مدينة الوادي، ومنها الى غدامس باحثا عن البقايا الحضارية للمنطقة فوجد عدة أثار رومانية ومخلفات لأبراجهم وبعد زيارته لمدينة تمبكتو قفل راجعا نحو الجزائر في اواخر عام 1860 مقدما معلومات هامة عن المنطقة في كتابه "توارق الشمال" (Les Touareg du Nord) وهو الذي هيأ الارضية لتوقيع معاهدة غدامس بين التوارق وفرنسا. (DUVEYRIER, 1864, p. 499)

في نفس الفترة اواخر 1860 قام الرائد كولونيو والملازم بوران بمحاولة فاشلة لاكتشاف تينقورارين وتوات والذان انطلقا من دائرة سعيدة والبيض (Vuilot, 1895, pp. 70-73) نحو الجنوب وكانت القصور تغلق ابوابها في وجه القافلة التي رافقتها الفرقة الفرنسية والتي يقودها "كولونيو" فقفلا راجعين نحو الشمال بعدما وصلا الى تيميمون.

4.3- رحلة جرهارد رولفس:

وفيما بعد قام الرحالة "جرهارد رولفس" ما بين 1862_1867 برحلات عديدة لكشف خبايا الصحراء متجها نحو المغرب الأقصى بعد انضمامه الى الليفي الاجنبي الفرنسي حيث ذهب الى السوس ووادي درعا ثم تافيلالت ثم فقيق ثم وهران، وبعدها قام برحلة اخرى الى طنجة ووادي زيز عبر الاطلس المغربي ثم وادي الساورة وايغلي وبني عباس ثم توات وتيديكلت ثم عين صالح وغدامس وفي الاخير طرابلس.

(Brun, 1866, pp. 129-135) ثم قام برحلة أخرى نحو تشاد عبر ليبيا ما بين 1873 و 1878. اكتشفت فرنسا عبر قوتها العسكرية بالجنوب غرب ورقلة منها مغيرية وحاسي قدور تامسقيدة، وكان الضابط روز هو من دوّن هذه الرحلة محاولا خلال رحلته جمع أكبر قدر من المعلومات عن المنطقة انطلاقا من الساحل وصولا الى اعماق الصحراء. (Rose, 1891, pp. 87-120)

5.3- بعثة الأب " ريشار " و "كيرمابون":

نشط الاباء البيض لخوض غمار التوسع في الصحراء تلبية لنداء الكاردينال "لافيجري" لقيادة عملية التمسح والتحصير في اوساط المسلمين (ابراهيم، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934، 2011، صفحة 422) وكان من بينهم الاب "ريشار" و"كيرمابون" اللذان قاما برحلة باستكشاف ضمن بعثة الى الجنوب للتعرف على اسرار الصحراء وجغرافيتها من خلال الادلاء التوارق والتي انطلقت من غدامس الى وادي تيكاملت شمال غرب غات وقد نجحت هذه البعثة في جمع معلومات جغرافية مهمة عن المنطقة بالاضافة الى تنصيب مراكز للتبشير بمنطقة "آزجار".

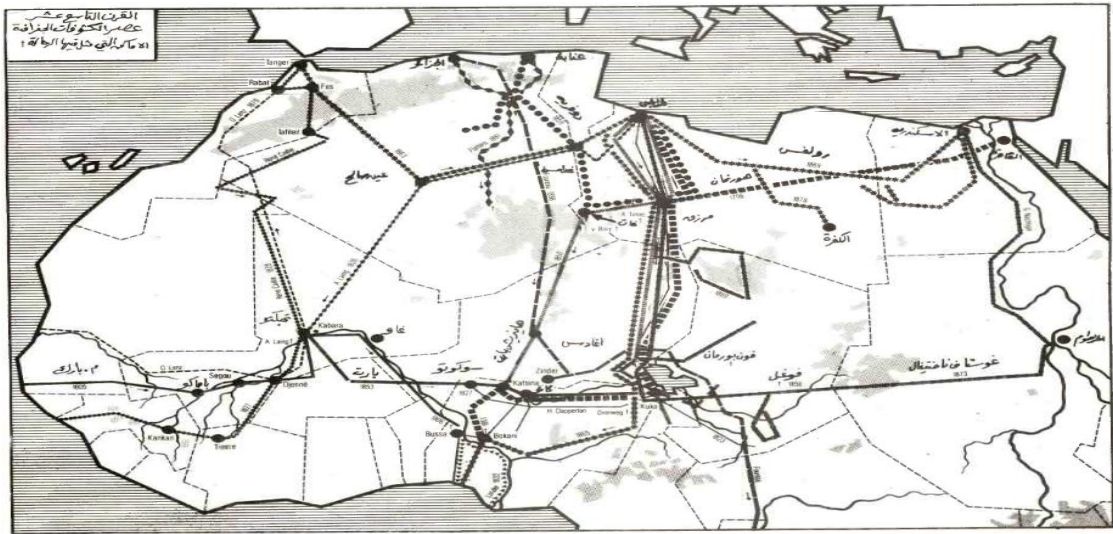
6.3- بعثة فلاترز:

تمت رحلة العقيد "فلاترز" على مرحلتين الاولى من ورقلة الى الاغواط مع مجموعة من الاعضاء منهم المهندسان بوانجة ووروش والطبيب غيارد والنقيبان برنار وموسون في 21 ماي 1880 م متجهة نحو منطقة مزاب عبر مسالك جديدة مما جعل "فلاترز" يجمع معلومات جديدة عن المنطقة الصحراوية ثم مواصلة المسير نحو مدينة بني يزقن ثم مدينة بريان وبعدها الاغواط التي وصلها في 03 جوان 1880 ثم العودة بعد ذلك الى باريس حيث تم استقباله من قبل الجهات المختصة التي شجعتة على العودة الى الاستكشاف وفعلا عاد "فلاترز" الى الصحراء وبالضبط الى ورقلة والاغواط متخذنا شعار الاكتشافات العلمية، وقد قدّم معلومات وافية عن المناطق التي اجتازها بوصفه لكل مظاهر السطح الصحراوي ثم عاد الى باريس اين استقبلته مصلحة الطريق الصحراوي والتي سلمت له الاموال اللازمة لاعادة الكشوفات من جديد. (ابراهيم، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934، 2011، صفحة 423)

وبعد ذلك كانت وجهة هذه البعثة استكشاف الطريق الصحراوي الممتد الى بلاد السودان في شهر ديسمبر 1880 م ولكن واجهته عدة مصاعب في الطريق لأنه سلك دروبا جديدة لا يعرفها بمعبة البعثة التي كانت ترافقه فقرّر العودة عبر الطرق التي يعرفها وأن لا يسير في المجهول الى ان التقى التوارق في طريق عودته والذين نصبوا له كمينا مما ادى الى مقتله والبعض من مرافقيه ونجاة بعضهم ورجوعهم سالمين الى ورقلة (ابراهيم، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934، 2011، صفحة 425).

بعد هذه الحقبة النشطة بالبعثات الاستكشافية انطلق مشروع السكة الحديدية العابرة للصحراء "Transsaharien" معترفا بدورها المنظم واهميتها في تقديم معلومات عن الجغرافيا الطبيعية للصحراء الجزائرية، وقد تأسف الفرنسيون لمذبحة "فلاترز" في عام 1881م واعتبروها خسارة لفرنسا كما تظهر أهمية الاستكشافات الجغرافية في قول " يظهر كتاب اغسطين برنارد والراند الكروا الاختراق الصحراوي، وبوضوح من خلال سرد المحاولات التي جرت على التوالي في الفترة من 1850 _ 1898 في حين أن المديرين العسكريين في الجنوب منذ البداية يجدون أنفسهم في التزام حتمي يدفعهم للوقوف ضد القبائل المتمردة، كما يتم تكريس مجموعة كاملة من المستكشفين لاختراق أبعد من ذلك والذهاب جنوبا بحثا عن طرق السودان البعيدة والطرق التجارية للدول المجاورة وجنوب المغرب ". (Blanc, 1890 , p. 4)

المسالك التي عبرها المستكشفون الاوروبيون في القرن التاسع عشر (غانم، 1989، صفحة 292)



أثر البعثات الاستكشافية في تحديد منافذ التوسع بالصحراء:

- وانطلاقا مما تعرفوا عليه من هذه الطرق ومما توصلت اليه البعثات الاستكشافية فقد توغلت فرنسا عبر منافذ أهمها:
- أ. طريق أغادير دكاك عابرا تندوف، فور قيرو أكجوجت، ليتوجه نحو نواقشط ليصل الى سان لويس بالسنغال على مسافة طولها 3000 كلم.
- ب. طريق وهران، عين الصفراء الى النيجر الذي يخترق مساره البالغ أكثر من 2800 كم نحو الجنوب الجزائري كل من بشار كولمب العبادلة، ايغلي، بني عباس، أدرار، رقان، بيدو وغاو لينتهي في دولة النيجر، وقد كان هذا التوغل سببا في انجاز مشاريع اقتصادية هامة منها منطقة صناعية بـكولمب. (Blanc, 1890 , p. 5)
- ت. طريق الجزائر تمبكتو الذي يتجاوز طوله 3500 كم ويمر على البليدة بوغار، الاغواط غرداية، القليعة وعين صالح ليصل الى تمنراست ثم أقار لينتهي بزندان التي تقع بين دولة النيجر ودولة تشاد وقد أورد المستكشف الفرنسي رونييه كايي معلومات ورسوم مفصلة عن المنطقة وقدمها لفرنسا.
- ث. طريق بون (عنابة) مورزوق بليبيا والذي يعبر قسنطينة ثم قطع الواحات الصحراوية وبسكرة وتقرت، الوادي، ورقلة وجانت ليتحول نحو فزان بليبيا وهو الطريق الذي سلكه النقيب بون مان سنة 1856 بين غدامس والوادي ورسم لهما طريقان يربطاهما وجلب الكثير من المعلومات ذات الطابع التجاري. (ابراهيم، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، 1996، صفحة 48) ومن هنا نستنتج ان المسارات التي سلكتها البعثات الاستكشافية في الصحراء الجزائرية هي تقريبا المسارات التي ارادت فرنسا رسمها واتباعها لإنشاء مشروع السكة العابرة للصحراء.

فكرة إنشاء خطوط سكة الحديد بالجنوب:

بعد التوسع الفرنسي في جميع مناطق التراب الوطني حاول هذا التوسع استغلال خيرات الجزائر وتحويل الموارد والخيرات إلى فرنسا والاسواق الدولية. ويعود اقتراح بناء السكة الحديدية في الجزائر الى دعاة التيار السان سيموني في فرنسا وعلى رأسهم "بولين طلابو"، أحد أكبر رجال الاعمال المستثمرين متخذين بذلك حجة البلدان التي لديها شبكة كاملة من الطرق، مثل الولايات المتحدة الامريكية والدول الاوربية التي تنفذ شبكات السكك الحديدية الواسعة.

ثم توالى الافكار في هذا الاتجاه حيث نشرت جريدة الوطن مقالا في 15 اوت 1833، دافع فيه صاحبه عن ضرورة إنشاء السكك الحديدية في المستعمرة الجديدة نظرا للفوائد المرجوة من مشاريعها، طالبا في ذات الصدد بإنشاء السكة الحديدية كما ترجع أول فكرة لإنشائها في الجزائر الى السيد ريدون الذي عزم سنة 1844 بناء سكة الحديد من الجزائر الى البليدة، والذي تم استئناف مشروعه لاحقا من قبل السيد "كارفيجان" وبلغت النفقات وفقا لحساباته 17 مليون على طول 61 كم ومسار مزدوج يبلغ 16 كلم، وقد لقي هذا الرأي تأييدا من القائد الاعلى للمهندسين بالجزائر الجنرال "دي شابو لاتور" لكن المجلس العام للجسور والطرق أعلن أنه يمكن تخفيض هذه النفقات الى 12 مليون فرنكا فقط ثم توالى الاقتراحات حول توسيع الشبكة نحو الجنوب. (A-P.TUILLIER, 1900, p. 8)

1.4- المرسوم الامبراطوري 18 أبريل 1857 الولادة القانونية للسكك الحديدية في الجزائر:

في 18 أبريل 1857 قام الماريشال "فايان" برفع تقرير مباشر الى الامبراطور دون فتح تحقيق في الجزائر، ضم هذا المخطط مشروع انجاز شبكة عامة من الخطوط الحديدية تمتد عبر كامل المناطق التلية، مما جاء في التقرير نذكر ما يلي: "أعتقد جلاله الامبراطور أن الوقت قد حان لتزويد الجزائر بخطوط السكة الحديدية من أجل ارضاء مصالحنا الزراعية، التي تم انشاؤها فعليا، والاسراع في تطويرها تدريجيا، في الواقع يجب اعتبار السكك الحديدية التي تحتضن المقاطعات الثلاث ستجلب الحياة والثروة من خلال النقل السريع لمنتجات الأرض والصناعة وكذلك من خلال التسهيلات الممنوحة حركات الاستعمار لسكان متزايدين، ان مثل هذا العمل الذي انجزه الجيش اثناء السلام سيزيد من سمعة جنودنا ويوسع المجال المتبع للاستعمار الاوربي". (Poggi, 1931, pp. 28-30)

كما ادت مقترحات "كاباني" المتعلقة بخط سكة حديد من الجزائر الى بوسعادة وورقلة نحو تونس وليبيا وعين صالح والحقار سنة 1853 الى التخطيط الجدي لاستغلال الصحراء الجزائرية أيما استغلال اضافة الى افكار المهندس الفرنسي "ادولف دوبونشيل" منذ عام 1874 الذي كان متأثرا بالتوسع الانجليزي في افريقيا داعيا الى ضرورة مقاومة المنافسة الانجليزية بمد هذه الخطوط لربط المستعمرات لفرنسية ببعضها البعض واقترح خطا يمتد الى الترانسفال في اقصى جنوب القارة مستغرقة ثلاثة عقود تقريبا كما استطاع اقناع البرلمان الفرنسي باعتماد ثلاثة مشاريع لثلاثة خطوط عام 1880م هي الخط الشرقي عبر غدامس وخط الوسط من ورقلة وامقيد نحو بحيرة تشاد. (احميدة، 2009، صفحة 79)

وقد وضعت استراتيجية تتضمن خططا متكاملة تخص الجزائر وفق ثلاث مفاصل أساسية لتحقيق الأهداف المحددة، وهي ربط مناطق الوفرة الاقتصادية للجزائر بالموانئ الجزائرية الرئيسية منها ميناء عنابة، سكيكدة، بجاية والقل في عمالة قسنطينة، والموانئ الجزائرية و تنس في عمالة الوسط، وموانئ الغزوات ، وهران، مستغانم، في عمالة الغرب، وذلك عبر شبكة من السكك الحديدية التي صممت لأغراض عسكرية اقتصادية استعمارية تمتد عبر الخط الرئيسي العرضي الذي يربط تونس بالمغرب عن طريق الجزائر لتتفرع منه خطوط نحو الموانئ والصحراء.

2.4- الدوافع التي حركت فرنسا لاقامة مشروع سكة الحديد العابرة للصحراء

هناك العديد من العوامل التي دفعت بفرنسا الى التفكير في تنفيذ هذا المشروع ومنها:

- اعتبار سكة الحديد العابرة للصحراء رمزا للقوة حيث كتب قائد الفرقة السادسة عشر للمشاة لجيش افريقيا "ان سكة الحديد هي ما تحتاج اليه الجيوش والاساطيل دائما وهي وسيلة ورمز ومحرك قوة قياسي واداة للسيطرة والغزو" (Frish.R.j, 1899)

- ربط المستعمرات ببعضها البعض في الشمال والغرب والوسط فلقد ادت بعض الاسباب الى تغيير الرأي واحياء الاهتمام بالمسألة أي السكة الحديدية لأن المستعمرات بافريقيا قد نمت المتمثلة في الجزائر وتونس والسودان أكثر فأكثر (A-P.TUILLIER, 1900, p. 120)

- رغبة فرنسا في القضاء على بؤر التوتر والمناطق الساخنة التي تنشط بها المقاومة الوطنية الشعبية في الجنوب بنقل وحدات من الجيش الفرنسي.

- خدمة التجارة الفرنسية وفتح الطرق نحو الاسواق الافريقية (بوعزيز, 1999, صفحة 90) حيث أولى الفرنسيون اهتماما بالغا بالصحراء للتعرف على اسرارها ومنها الطرق الصحراوية ومسالك القوافل التجارية الى السودان مستفيدين أيضا من معلومات البعثات الاستكشافية (Blanc, 1890, pp. 177-183).

خاتمة:

يتبين لنا مما سبق أن فرنسا سعت الى ضبط مساراتها الجغرافية وخرائطها على ما توفر لها من معلومات التي خلدها الرحالة المستكشفون امثال دوفريه او ريني كايي او فلاترز او حتى التي تتبعها المحتل الفرنسي بعد احتلاله للجزائر لإنجاز مشروعها الاستعماري الذي كانت ترى فيه مجدها العظيم لبناء إمبراطورتها الجديدة، والتي سمتها افريقيا الفرنسية خاصة بعد الحاح التيار السانسيموني على انجاز المشروع، ولكنه لم ينفذ في المناطق الصحراوية لأسباب عديدة منها طبيعة سكان الصحراء الذين دافعوا عن ارضهم بإبعاد الاجانب عن مناطقهم، وايضا صعوبة المنطقة جغرافيا وتكلفة المشروع المرتفعة وسط الكثبان الرملية وقساوة المناخ وقد بقي مشروع السكة الحديدية العابرة للصحراء حبيس الاوراق التي كتب عليها.

كما نستنتج من هذا المقال:

أولاً: أن البعثات الاستكشافية كان لها دور كبير في تمهيد الطريق امام التوسع الفرنسي حيث رسمت الطرق والمنافذ نحو الصحراء وأعدتها في خرائط جغرافية.

ثانياً: أن الاطماع الفرنسية في الصحراء الجزائرية كانت كبيرة جدا ترمي الى تحقيق الحلم الفرنسي بانشاء أكبر امبراطورية في التاريخ المعاصر.

ثالثاً: ومن الناحية الاقتصادية فالهدف من مشروع السكة الحديدية هو السيطرة على الصحراء الجزائرية باعتبارها خزان للموارد الثمينة.

وبالرغم من سياسة المشاريع الاقتصادية المتعددة التي اعتمدتها فرنسا في سيطرتها على الجزائر إلا أن أحلامها الاستعمارية تبخرت مع اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954.

المصادر والمراجع:

قائمة المراجع العربية

- اسماعيل العربي. (1983). الصحراء الكبرى وشواطئها. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- جورج غيرستر. (1961). الصحراء الكبرى. بيروت: منشورات المكتب التجاري.
- عبيد مصطفى. (2013). الفكر الاستعماري السانسيوني في مصر والجزائر 1833-1870. الجزائر: دار المعرفة.
- عماد الدين غانم. (1989). الصحراء الكبرى. ليبيا: منشورات جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.
- عميراي حميدة. (2009). السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916. عين مليلة الجزائر: دار الهدى.
- مياي ابراهيم. (1912). مقاربات في تاريخ الجزائر 1830-1962. الجزائر: دار هومة.
- مياي ابراهيم. (1996). توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري. الجزائر: منشورات م.و.م.
- مياي ابراهيم. (2011). الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934. الجزائر: دار هومة.
- يحي بوعزيز. (1999). مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

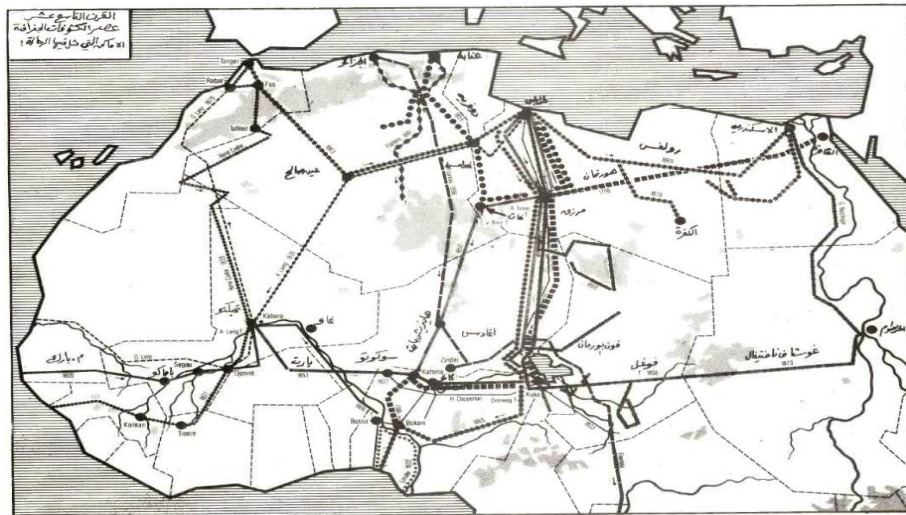
قائمة المراجع الاجنبية

- A-P.TUILLIER. (1900). *Régime Des Chemins de fer Algeriens*. Paris: Lebrairie nounelle de droit et de jurisprudence.
- barth, H. (1872). *idees sur les expositions scientifiques en Afrique*. paris.
- barth, H. (1872). *idees sur les expositions scientifiques en Afrique ; in extrait du bultin de la societe de geographie*. paris.
- Blanc, E. (1890). *les routes de Lafrique septentrionale au Soudan*. Paris: B,s,g.
- Brun, M. (1866). *Resume historique et geogaphique de gerhard rolfs au Touate et a ain çalah*. Paris: Challamel.
- colombe, M. d. (1858). *Explorations des ksours et du Sahara de la province du d Oran*. Paris: Challamel.
- colombe, M. d. (1858). *Explorations des ksours et du Sahara de la province du d Oran*. Paris: Challamel.
- DUVEYRIER, H. (1864). *Les Touqreg du Nord*. Paris: Challamel.
- E.CAT. (1892). *A travers le désert*. Paris: Gedalge.
- E.Mangin. (1894). *Notes sur l’histoire de l’Aghouat in Revue Africanine n°38*. opy Alger.
- E.Mangine. (1894). *Notes sur l’histoire de l’Aghouat in Revue Africanine.n°38*. Paris: opy Alger.

- F.Foureau. (1883). *Excursion dans le sahara Algerien*. Paris: BNF.
- Frish.R.j. (1899). *consideration sur la defense de l Algerie tunisie de l Armee d afrique*.
Paris: Henri chaires lavauzelle edition militaire.
- Jules, G. (1860). *Exploration du sahara et du continent African*. Paris: E.Dentu , Librairé.
- Largeau, V. (1881). *Le Sahara algérien, les déserts de l'Erg*. Paris: Librairie Hachatte.
- M.Bourlier. (1890). *Observations Sommaires Sur les traces Chemin de fer Transsaharien*.
Oran: Imprimerie D.Heintz.
- National, C. C. (s.d.). *Congré Colonial National*. Paris: Bibliothèque nationale gallica.bnf.fr.
- Poggi, J. (1931). *Les chemins de fer d'intérêt général de l'Algérie*. Paris: La rose.
- Rose. (1891). *colonne de l externe sud ; janvie 1872*. oran: b.s.g . d arc.
- Vuilot. (1895). *L'Exploration du sahara*. Paris: Librairie coloniale.
- دار القلم: بيروت. تاريخ ابن خلدون. (1984). ا. ع. وابن خلدون.

– الملحق رقم 1

– خريطة طرق الرحالة والمستكشفين الاوربيين في القرن التاسع عشر بافريقيا⁴



الملحق 2

المسالك التي سجلتها بعثة فلاترز⁵

⁴ عماد الدين غانم. الصحراء الكبرى. منشورات جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. ليبيا 1989. ص 292

⁵ Ministère de la guerre. Historique de la compagnie saharienne de Touggourt. 1929. pp16.17